

تشكل هوية الأنا وفق نظرية أريكسون ونموذج جيمس مارشا

د. حسين عبدالفتاح الغامدي

أولاً: مدخل لنظرية أريكسون:

تعتبر نظرية أريكسون Erikson (1959, 1963, 1968) في النمو النفسي/اجتماعي Psychosocial development بصفة عامة ونمو هوية الأنا Ego Identity بصفة خاصة عن رؤية جديدة خرجت بالتحليل النفسي من الدائرة الضيقة للفرضية الأفيرويدية القائلة بالاحتمية البايولوجية المتمثلة في القوى النفس/جنسية Psychosexual forces كأساس للنمو إلى مجال أوسع أستدخل فيه القوى النفس/اجتماعية Psychosocial forces وذلك من خلال افتراضه لسير النمو تبعاً لمبدأ التطور "Epigenetic principle" المؤكد لتأثير العوامل الاجتماعية في تشكل النمو. وعلى أساس هذا المبدأ يرى أريكسون النمو كعملية تطورية ناتجة عن التفاعل بين الأساسين البايولوجي والاجتماعي، وما يثمر عنه من نمو شخصي خلال مراحل العمر المختلفة. وعلى هذا الأساس حدد أريكسون ثماني مراحل للنمو مدى الحياة تبدأ كل منها بظهور أزمة ضرورية لاستمرارية نمو الأنا، تحل إيجاباً أو سلباً تبعاً لسلامة العوامل السابقة، مفضية في كل مرحلة إلى كلفة نفسية جديدة A new psychological totality، يكتسب الأنا في كل منها فعالية جديدة في حالة الحل الإيجابي أو درجة أعمق من الاضطراب في حالة الحل السلبي. وبهذا تمكن أريكسون من تقديم صورة أكثر شمولية عن نمو الشخصية مؤكداً فيها تجاوز الأنا للدور المرسوم له في الفكر الكلاسيكي كوسيط سلبي لحل الصراع إلى أنا فاعل ينمو ويكتسب فعاليات تكيفية جديدة تبعاً للمتطلبات الاجتماعية مع حل أزمات النمو Developmental Crisis والتي يمكن إيجازها في الجدول التالي (رقم 1):

العمر	أزمة النمو	فاعلية الأنا المكتسبة
السنة الأولى	الثقة مقابل انعدام الثقة Trust Vs. Mistrust	الأمل Hope
السنة الثانية	الاستقلال مقابل الخجل والشك Autonomy Vs. Shame and Doubt	الإرادة Will
الطفولة المبكرة	المبادرة في مقابل الشعور بالذنب Intuitive Vs. Guilt	الغرضية Purpose
الطفولة المتوسطة	المتابعة مقابل الشعور بالنقص Industry Vs. Inferiority	الكفاية Competence
المراهقة	هوية الأنا مقابل اضطراب الدور Ego Identity Vs. Role Confusion	التفاني Fidelity
الشباب	الألفة مقابل العزلة Intimacy Vs. Isolation	الحب Love
أواسط العمر	الإنتاجية مقابل الركود Generativity Vs. Stagnation	الاهتمام Care
أواخر العمر	التكامل مقابل اليأس Integrity Vs. Despair	الحكمة Wisdom

ثانيا: تشكل و حل أزمة هوية الأنا:

ترتبط أزمة هوية الأنا من وجهة نظر أريكسون (1959, 1963, 1968) Erikson بمرحلة المراهقة وبدايات الشباب، حيث تمثل المطلب الأساسي للنمو خلال هذه المرحلة و نقطة تحول نحو الاستقلالية الضرورية للنمو السوي في مرحلة الرشد، وبالرغم من اعتمادها على ما يسبقها من توحيدات Identifications وحاجات بايولوجية خلال المرحلتين الأولى والثانية واجتماعية خلال المرحلتين الثالثة والرابعة، فإنها ليست أيا من هذه التوحيدات ولا حتى مجموعها بل نتاج عملية دمج تتضمن تجاهل انتقائي وتمثيل تبادلي Selective repudiation & Mutual Assimilation منتجة وحدة تكاملية جديدة مختلفة عن أصلها تضمن خلق جسر بين الطفولة والرشد. ولتأكيد ذلك يرى أريكسون أن تشكل هوية الأنا يحدث عندما تنتهي فعاليات هذه التوحيدات كعناصر منفصلة.

وتبدأ عملية تشكل هوية الأنا بظهور الأزمة نفسها المتمثل في درجة من الاضطراب المختلط Combined Moratorium المرتبط بمحاولة المراهق تحديد معنى لوجوده في الحياة (من أنا؟ وما دوري في هذه الحياة؟) والى أين اتجه؟، وذلك من خلال محاولته اكتشاف ما يناسبه من مبادئ ومعتقدات وأهداف و أدوار و علاقات اجتماعية ذات معنى أو قيمة على المستوى الشخصي والاجتماعي. وتنتهي الأزمة بانتهاء هذا الاضطراب وتحقيق المراهق للإحساس القوي بالذات ممثلا في إحساسه بتفرد و وحدته الكلية وتمائل واستمرارية ماضيه وحاضره ومستقبله و قدرته على حل الصراع والتوفيق بين الأحاسيس والحاجات الملحة والمتطلبات الاجتماعية المتناقضة. وينعكس ذلك سلوكيا على التزامه بما تم اختياره، وأيضا على التزامه بالمثل الاجتماعية بدلا من مواجهتها، وعلى إحساسه بواجبه نحو نفسه ومجتمعه بوضوح. عند هذه المرحلة يكون الأنا قد اكتسب فعاليته الجديدة المتمثلة في الإحساس بالثبات Virtue of fidelity.

وإذا كان هذا هو الوجه الإيجابي لأزمة النمو في المراهقة فإن اضطراب هوية الأنا يمثل الوجه المظلم المحتمل في حالة الفشل في حل الأزمة إيجابيا كنتيجة لعدم قدرة الفرد على حل التوحيدات الطفولية غير السوية والصراعات المؤلمة، و يأخذ اضطراب هوية الأنا شكلين أساسيين من وجهة نظر أريكسون هما:

1. اضطراب الدور Role confusion: يرتبط اضطراب الدور بفشل المراهق في خلق تكامل بين توحيدات الطفولة مما يؤدي إلى استمرارية التعليق وتحوله من مجرد فترة اختبار إلى نوع من الاضطراب المعيق لحل أزمة هوية الأنا وتبني الأدوار المناسبة، حيث يعاني المراهق فيه من الإحساس المهلhel بالذات وعدم القدرة على تحديد معنى لوجوده، مما يؤدي إلى فشله في تحديد وتبني أدوار و أهداف ذات معنى أو قيمة شخصية واجتماعية. هذا إضافة إلى ضعف التزامه بما تفرضه الصدفة عليه من أدوار. وترتبط هذه السمات بدرجة عالية من الفلق، و مشاعر عدم الكفاية، والسلوك الجامد المتعصب، و ضعف القدرة على اتخاذ القرارات، وسوء علاقاته الاجتماعية، وضعف الالتزام بأهداف وأدوار ثابتة.

2. تبني الهوية السالب The adaptation of a negative identity: يمثل هذا النمط الوجه الأخطر لاضطراب هوية الأنا، حيث يرتبط بدرجة أعلى من الإحساس بالتفكك الداخلي Inner fragmentation، والذي لا يقتصر تأثيره على عدم القدرة على تحديد أهداف ثابتة أو تحقيق الرضا عن دوره الاجتماعي، بل ويلعب ذلك دورا

أكثر سلبية في حياة الفرد بصفة عامة، حيث يدفع بالمراهق إلى ممارسة أدوار غير مقبولة اجتماعيا ومن ذلك الجنوح و تعاطي المخدرات.

ثالثا: رتب هوية الأنا Ego Identity Status :

تمثل نتائج أبحاث جيمس مارشا Marcia (1964, 1966) أهم التطويرات التي قدمت في مجال هوية الأنا وفقا للمنظور الأريكسوني، حيث قام مارشا بإعداد المقابلة نصف البنائية Semi-Structured Interview لقياس تشكل هوية الأنا وفقا لتحديد إجرائي للهوية يعتمد على تحديد أربع رتب لها تبعا لظهور أو غياب أزمة الهوية المتمثلة في رحلة من البحث والاختبار للخيارات المتاحة المرتبطة بمعتقدات الفرد وقيمة الأيديولوجية وأدواره وعلاقاته الاجتماعية من جانب، ومدى التزامه بما يتم اختياره من قيم ومبادئ أيديولوجية و أهداف وأدوار اجتماعية من جانب آخر. وتعكس كل رتبة قدرة الفرد على التعامل مع المشكلات المرتبطة بأهدافه وأدواره ومن ثم إمكانية الوصول إلى معنى ثابت لذاته ووجوده. ومن خلال الدراسات المتابعة توصل مارشا Marcia (1966, 1967; 1980; 1988) إلى تحديد أربع رتب لهوية الأنا ذات طبيعة ديناميكية متغيرة كما يشير وترمان وقولدمان (1976) Waterman and Goldman. ويمكن إيجاز هذه الرتب وطبيعة النمو فيها فيما يلي:

1. تحقيق هوية الأنا Ego Identity Achievement:

تمثل رتبة تحقيق هوية الأنا الرتبة المثالية لهوية الأنا، ويتحقق ذلك نتيجة لخبرة الفرد للأزمة من جانب ممثلة في مروره برحلة من البحث واختبار واكتشاف ما يناسبه من القيم و المعتقدات والأهداف والأدوار المتاحة وانتقاء ما كان ذا معنى أو قيمة شخصية واجتماعية، ثم التزامه الحقيقي بما تم اختياره من جانب آخر. ويعتبر تحقيق هذه الرتبة مؤشرا للنمو السوي، إذ ترتبط كما تشير نتائج البحوث الميدانية بكثير من السمات الشخصية الإيجابية كتقدير الذات والتوافق النفسي، والقدرة على مواجهة المشكلات المختلفة، والمرونة والانفتاح على الأفكار الجديدة (Berzonsky, 1992)، ونضج العلاقات الاجتماعية (Adams et al., 1984)، و نمو الأنا والنمو المعرفي والأخلاقي (Rowe and Marcia, 1980) وغيرها من جوانب النمو.

2. تعليق هوية الأنا Ego Identity Moratorium:

تمثل رتبة تعليق هوية الأنا تقدما إيجابيا نحو التحقيق إذا توفرت العوامل الإيجابية، بل إن فترة من التعليق المرتبط بظهور الأزمة تعد مطلبا أوليا لذلك. ومع ذلك يبقى الفارق بين الرتبتين قائما حيث يفشل المراهق من هذا النوع في اكتشاف هويته، إذ تستمر خبرته للأزمة ممثلة في استمرار محاولته لكشف واختبار الخيارات المتاحة دون الوصول إلى قرار نهائي ودون إبداء التزام حقيقي بخيارات محددة منها، مما يدفعه إلى تغييرها من وقت إلى آخر في محاولة منه للوصول إلى ما يناسبه، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر تغيير مجال الدراسة أو المهنة أو الهويات أو الأصدقاء. و يشترك المعلقون مع المحققين في بعض السمات الإيجابية كالرضا عن الذات والتوجيه الذاتي، إلا أنهم يخبرون درجة أعلى من القلق، ومشاعر الذنب لما يسببونه من خيبة أمل للآخرين (Cited in Kimmel, & Weiner, 1995).

3. انغلاق هوية الأنا Ego Identity Foreclosure:

يرتبط انغلاق هوية الأنا بغياب الأزيمة متمثلاً في تجنب الفرد لأي محاولة ذاتية للكشف عن معتقدات وأهداف وأدوار ذات معنى أو قيمة في الحياة مكتفياً بالالتزام والرضا بما تحدده قوى خارجية كالأسرة أو أحد الوالدين أو المعايير الثقافية والعادات له من أهداف وأدوار. وانسجاماً مع هذا الميل يؤكد بيرزونسكي Berzonsky (1989) ميل منغلق الهوية إلى مسايرة الآخرين و الاعتماد عليهم أكثر من مشاركتهم في تحديد الخيارات المناسبة والمحقة لذواتهم، مع إظهار التزام غير ناضج لا يعتمد على التفكير الذاتي بما يحدد لهم من أهداف. ومثالاً على الانغلاق الخالص اختيار الأفراد أصدقاءهم و أعمالهم وزوجاتهم وأفكارهم وفق رغبات الموجهين لهم دون تفكير منهم. وكنتيجة لهذه المسايرة يلاقي منغلق الهوية في هذه الرتبة تقديراً من الكبار مما يعزز هذا التوجه لديهم، ويؤدي بهم إلى افتقاد التلقائية في المواقف الاجتماعية (Cited in Kimmel & Weiner, 1995)، إضافة إلى العديد من الاضطرابات النفسية المرتبطة بدورها بخلل في النمو خلال الطفولة وخاصة في حل أزمة الافتراق والتشخص Separation-Individuation (Grotevant & Cooper, 1986).

4. تشتت (تفكك) هوية الأنا Ego Identity Diffusion:

يرتبط هذا النمط من هوية الأنا بغياب كل من أزمة الهوية متمثلاً في عدم إحساس الأفراد بالحاجة إلى تكوين فلسفة أو أهداف أو أدوار محددة في الحياة من جانب، وغياب الالتزام بما شاعت الصدق أن يمارسوا من أدوار من جانب آخر. ويحدث ذلك كنتيجة لتلافي الأفراد في هذا النمط للبحث والاختبار كوسيلة للاختيار المناسب، مفضلين التوافق مع المشكلات أو حلها عن طريق تأجيل وتعطيل الاختيار بين أي من الخيارات المتاحة. و يتسم الأفراد في هذه الرتبة بضعف التوجيه والضبط الذاتي (Marcia, 1980)، والتمركز حول ذواتهم وضعف الاهتمام والمشاركة الاجتماعية. كما يخبرون درجة عالية من القلق وسوء التوافق والشعور بعدم الكفاية. هذا يدفع بدوره إلى جمود السلوك وعدم القدرة على اتخاذ القرارات السليمة وإلى كثير من الاضطرابات السلوكية الخطرة كالجنوح وتعاطي المخدرات والاضطرابات النفسية (Cited in Kimmel & Weiner, 1995).

جدول (1) رتب هوية الأنا وفق نموذج مارشا:

أزمة هوية الأنا Ego Identity Crisis			الالتزام Commitment
Absent غائبة	Present ظاهره		
انغلاق هوية الأنا Ego Identity Foreclosure	تحقيق هوية الأنا Ego Identity achievement	ظاهره Present	
تفكك هوية الأنا Ego Identity Diffusion	تعليق هوية الأنا Ego Identity Moratorium	غائبة Absent	